انتقال السلطنة إلى المماليك البحرية الصالحية

-يروي جوانفيل قصة غريبة خلاصتها أن أمراء المماليك بعد أن قتلوا سلطانهم تورانشاه اقترحوا في مجلس المشورة أن يمنح الملك لويس التاسع سلطنة مصر، وأنه لولا علمهم بتعصبه للديانة المسيحية وخوفهم من إجباره لهم على اعتناقها، لنفذوا هذا الاقتراح ولوجدوا قبولاً من الملك نفسه.فهل هذا صحيح؟

- من الواضح أن هذه القصة مختلقة من أساسها، ولعلها مستوحاة من الاضطراب الذي حل بالمعسكر الإسلامي، وحيرة أمراء المماليك فيمن يكون سلطانًا بعد أن قتل تورانشاه في سرعة مفاجئة.
- وكان من الطبيعي أن يطمع كل أمير منهم في سلطنة مصر.
- وهناك أيضًا ملوك الأيوبيين بالشام وعلى رأسهم الناصر يوسف بن العزيز محمد.

- كيفما كان الأمر فقد قرر المماليك حل العقدة التي نجمت عن شغور العرش المصري بإقامة شجر الدر أم خليل بن الصالح أيوب في السلطنة.
- ثم عرضوا الأتابكية أو نيابة السلطنة على عدد من الأمراء.
- وانتهى الأمر بتعيين أيبك التركماني أحد أمراء البحرية الصالحية، ولفظ أيبك يتركب من كلمتين تركيتين هما آي ومعناها القمر، وبك ومعناها الأمير، فمعنى الاسم الأمير القمر.

شجر الدر٦٤٨هـ/١٢٥٠م

- أخذت البيعة للسلطانة الجديدة باعتبارها أم ولد هو خليل الذي توفى في حياة أبيه .
- ونقش اسمها على السكة بالعبارة الآتية: «المستعصية الصالحية ملكة المسلمين والدة خليل أمير المؤمنين».
- قبضت شجر الدر على زمام الأمور في مصر بيد من حديد.

- ولم يكن ابن إياس مغاليًا حين وصفها بأنها امرأة صعبة الخلق، شديدة الغيرة، قوية البأس، ذات شهامة زائدة، وحرمة وافرة، سكرانة من خمرة التيه والعجب.
- وحق لها أن تكون ذلك كله فهي صاحبة الفضل في إخفاق حملة صليبية كبيرة على مصر.
- وقد أتت إلى العرش اعترافًا من المعاصرين بذلك الفضل.

- وإذا استثنينا رضية الدين سلطانة دلهي (١٢٣٦-١٢٤٠م)، تعتبر شجر الدر أول ملكة مسلمة جلست على عرش مملكة إسلامية.
- أول عمل اهتمت به شجر الدر هو تصفية الموقف مع الفرنج.
- وإنهاء المفاوضات التي بدأت معهم على عهد تورانشاه.

- وتم الاتفاق مع الملك لويس التاسع على تسليم دمياط، وإخلاء سبيله وسبيل من معه من كبار الأسرى لقاء فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار يدفع نصفها قبل رحيله، ويدفع النصف الآخر بعد وصوله عكا.

- أبحر لويس التاسع وأتباعه إلى عكا في صفر سنة ٦٤٨هـ/ ٧ مايو سنة ١٢٥٠م، وبذلك انتهت الحملة الصليبية التي اقترنت حوادثها بنهاية الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك الأولى في مصر.
- أخذت شجر الدر تتقرب إلى الخاصة والعامة، وتعمل على إرضائهم بشتى الوسائل.

- لكن على الرغم من ذلك، فإن المصريين عمومًا أنفوا من قيام امرأة في السلطنة.
- وقاموا بمظاهرات واضطرابات عديدة في القاهرة حتى اضطرت الحكومة إلى غلق أبواب المدينة منعًا لتسرب أنباء الاضطرابات إلى بقية البلاد.
- ويبدو أن رجال الدين كانوا من وراء هذه الحركة المعارضة .

- وانتهز الملك الناصر يوسف صاحب حلب وحفيد صلاح الدين، هذه الفرصة السانحة وزحف بجيوشه نحو دمشق فاستولى عليها وعلى غيرها من المدن الشامية بدون حرب ثم واصل زحفه جنوبًا نحو مصر.

- وخاف المماليك على دولتهم الناشئة من منافسة الأيوبيين فكتبوا إلى الخليفة العباسي المستعصم يطلبو منه تأييد سلطنة شجر الدر.
- غير أن الخليفة عاب عليهم إقامة امرأة في السلطنة.
- اقتنع أمراء المماليك بخطأ تصرفهم .

- فأشاروا على شجر الدر بأن تتزوج الأتابك أيبك التركماني، وتتنازل له عن العرش، فقبلت ذلك وخلعت نفسها من السلطة في يوليو سنة ١٢٥٠م بعد أن حكمت ثمانين يومًا.
- تولى عرش مصر السلطان أيبك التركماني وتلقب باللقب السلطاني "الملك المعز".

السلطان المعز أيبك

وإذا تناولنا المشاكل والصعاب التي واجهت السلطان أيبك، نجد أنها تتمثل في تهديدات الأيوبيين والصليبيين في الخارج، وفي ثورات الأعراب في الداخل، ثم في خطر زملائه المماليك في داخل البلاد وخارجها.

عز الدين أيبك وصراعه مع الناصر يوسف الأيوبي

لم يكن حكم المماليك لمصر ليمر علي البيت الأيوبي بالشام، وكان الناصر يوسف علي رأس ذلك البيت المطالب بحقه والذي زحف من مدينته حلب، فاستولي علي دمشق وبعض المدن الشامية دون حرج، ثم اتجه جنوبًا بجيشه إلى مصر.

- ولكي يفوت المعز أيبك علي الناصر يوسف حجته؛ بأنه صاحب الحق الشرعي في حكم مصر، نراه يقيم طفل من أبناء البيت الأيوبي علي عرش مصر، وهو الأشرف موسي، فدعا له علي المنابر وضرب العملة باسمه.
- إلا أن الناصر يوسف كان يعلم أن هذه حيلة من المعز أيبك.

- واستمرت جيوش المماليك في الصالحية، وجيوش الأيوبيين في غزة، كل منهما تتحفز بالأخرى، إلى أن أنقذ الموقف أخيرًا الخليفة العباسي المستعصم عندما توسط لدي الفريقين، وتمكن رسوله من عقد الصلح بينهما في إبريل سنه ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م، علي أن يكون للمماليك مصر وجنوب فلسطين بما في ذلك غزة وبيت المقدس، في حين ما بعد بيت المقدس وغزة للأيوبيين حتى دمشق.

المماليك والصليبيين

- توج الملك لويس التاسع ملكًا علي بيت المقدس،حيث شعر أن تلك المملكة التي هي في أيدي المسلمين في حاجة إلى بقاءه في عكا.
- ونظر إلى الصراع الدائر بين الأيوبيين والمماليك علي انه فرصة يجب الاستفادة منها.

- لذا عمل علي انتهاج أسلوب الدبلوماسية مع الغالب منهما.
- وظل الموقف بين الأيوبيين والمماليك متجمدًا إلى أن جاء سفير الخليفة العباسي وعقد الصلح بينهما.
- وبذلك االصلح الأيوبي المملوكي شعر الملك لويس التاسع أن بقاءه في الشرق دون جدوى، فقرر العودة إلى بلاده.

- وقبل عودته عقد الهدنة مع الأيوبيين بالشام والمماليك بمصر؛ حتي يحافظ علي الممتلكات الصليبية.

ثورة الأعراب ضد المعز أيبك

- امتاز الأعراب أو العربان بمصر بمكانة اجتماعية، فضلاً عن تفوقهم الاقتصادي؛ بسبب احترافهم للزراعة. أما عن مكانتهم الاجتماعية فإنها ترجع لتفوقهم ومشاركتهم في الحروب ضد الصليبيين بالمال والسلاح والجند.

- وكان المماليك وعلي رأسهم عز الدين أيبك في مقتبل دولتهم الناشئة وعقب الحروب ضد الصليبيين والأيوبيين، قد احتاجوا إلى المال، ففرضوا علي الأعراب مزيد من الضرائب، وهذا لم يكن ليرضي الأعراب.
- فالتفوا حول أحد الاشراف العلويين .

- وقد امتزجت أهداف هذه الثورة الاقتصادية بأهداف سياسية،حيث رأى الأعراب وعلي رأسهم الأمير حصن الدين،أنه أحق بحكم مصر من المماليك الذين هم في نظر المجتمع أرقاء عبيد ليس من حقهم الملك، وأن حاكم مصر لابد أن يكون عربيًا حرً.
- وخاض الأعراب حربهم ضد المماليك.

- إلا أن فارس الدين أقطاي كان يتفوق عليهم في الخبرة العسكرية والحربية، فاستطاع هزيمتهم بإخماد ثورتهم. وقد فر الأمير حصن الدين ولم يستطع أيبك القبض عليه، حتي عصر السلطان بيبرس الذي قبض عليه وأعدمه بالإسكندرية.